

المديح النبوي في العصر العثماني: مظاهره وخصائصه

زينب بیره جكلي*

مقدمة

كان المديح النبوي ولا يزال تعبيراً عن حب الشعراء لخير البشرية قاطبة، وقد أراد أصحابه التعبد بالكلمة الطيبة، ودعاهم إلى ذلك أسباب متعددة يتعلق بعضها بالمناسبات الدينية، كرأس السنة الهجرية، وذكرى المولد النبوي الشريف، وزيارة البيت الحرام وقبر المصطفى ﷺ، ويتعلق بعضها الآخر بالظروف المحيطة بالشاعر كالحروب والكوارث الطبيعية، فضلاً عن انتشار التصوف الذي كان له أثر بارز في الشعر الديني عامة وفي المدائح النبوية خاصة. وهناك دواع أخرى ذاتية كالتوبة، وأدبية كـرغبة الشعراء في تقليد أو معارضة مدائح نبوية ذاع صيتها.

امتاز المديح النبوي في العصر العثماني بمظاهر تتعلق بالمضمون، كعرض صفات الرسول ﷺ، فضلاً عن وجود تطرف فيه غير حميد في كثير من الأحيان. كما امتاز بخصائص فنية تتعلق ببنية القصيدة النبوية، وموسيقاها التقليدية والمستحدثة، كوجود مزدوجات، ورباعيات ومخمصات وموشحات نبوية. وهناك سمات تتعلق بالأسلوب

* أستاذة الأدب المساعدة بكلية الآداب والعلوم، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة.

أو بالتشكيل اللغوي للمدحة النبوية كاحتوائها على البديع، وظهور معارضات وتشطير ومساجلات نبوية، إلى غيرها من الخصائص التي تتعلق بنبويات العهد العثماني مما سيكشف عنه هذا البحث.

المديح النبوي في العهد العثماني: مظاهره وخصائصه

المدحة النبوية هي قصيدة تنم عن حب الشعراء لرسول الله ﷺ، سواء أكانت في عصر النبوة أم في العصور التي لحقته. ومن المعلوم أن ذكر شمائل المتوفى يعد رثاء، إلا أنه في حق الرسول ﷺ يعد مديحاً وتقريضاً، لأن الغاية منه ليست إظهار التفجع والتحسر، وإنما الثناء على الرسول ﷺ والإشادة بخلاله الكريمة. ومنذ أوائل عصر الدول المتتابعة¹ انقسمت المدائح النبوية إلى قصائد ملهمة يعبر فيها الشاعر عن حبه للمصطفى ﷺ بأسلوب مطبوع لا مصنوع، وأخرى تعد من النظم لاحتفائها بالبديع ولذلك سميت بالبديعيات.

¹ هناك خلاف حول مفهوم عصر الدول المتتابعة: فالدكتور شوقي ضيف يرى أنه يبدأ بـ (334هـ) أي ببداية سلطنة البويهيين وسيطرتهم على زمام الأمور في بغداد، ولكني أرى في ذلك جوراً على العصر العباسي، ولا سيما أن كثيراً من مشاهيره عاشوا بعد هذا الزمن، كالعري والمثنبي، وأبي فراس الحمداني. أما د. نعيم الحمصي فقد حدده في كتابه "نحو فهم جديد ومنصف لأدب الدول المتتابعة" بمجيء الصليبيين إلى الأراضي العربية، وأرى أن هذه بداية مبكرة له أيضاً، ولا سيما أن صلاح الدين الأيوبي كان يعلن ولاءه الفعلي للخليفة العباسي، وكان الخليفة لا يزال ذا مركز مرموق. أما د. عمر موسى باشا فقد حدده بموت نجم الدين صالح الأيوبي 948هـ إذ تسلم الحكم الفعلي من بعده شجرة الدر. وحدده كثيرون بسقوط بغداد على أيدي المغول. أما أنا فأرى أن يستهل بمطلع القرن السابع الهجري حيث توفي صلاح الدين الأيوبي، وتسلم الحكم من بعده أولاده، فبدأ التفكك الفعلي للدولة إلى دويلات مجزأة يحكمها غير العرب. أما نهاية العصر فأرى أنها في 1335هـ/1916م، أي ينتهي العصر بالثورة العربية الكبرى التي أنهت الوجود العثماني على الأراضي العربية، وكان العثمانيون قد دخلوها في 922هـ/1516م، ولم ينته بمجيء نابليون بونابرت كما يقول المستشرقون ومن لف لفهم، لأن هذا كان قد احتل مصر فحسب دون سائر الأراضي العربية، ولمدة سنتين فحسب، ثم خرج منها على أيدي العثمانيين. وهذه الرقعة الصغيرة والمدة الوجيزة لا يمكن أن تؤثر في أدب عصر طويل، كما أن حركة الإحياء التي قامت على يد محمود سامي البارودي كانت في العهد العثماني، لأن هذا الشاعر عاش ومات في عهدهم. وقد أفضت في هذا الأمر في كتي.

وكثر هذه المدائح في العهد العثماني كثرة ملحوظة، ودعا إليها أسباب عديدة منها حب الرسول ﷺ، المناسبات الدينية، ومجاورة الرسول صلى الله عليه وسلم في أرض الحرم النبوي، وقد تدعو إليها نكبة حلت بالشاعر، أو توبة مما جنت يده. فالشاعر محمد بن إبراهيم العمادي¹ يهيم وجدًا بالمصطفى ﷺ فيعبر عن هذا الحب الشديد بقوله:

يا رسولَ الإلهِ يا أكرمَ الخَلِّ قِ يا رحمةً لكلِّ العبادِ
جُدْ لعبدٍ قد ضيَّعَ العمرَ في الخَوْ ف معاً والرجاءِ والتردادِ
بالغِ الوجدِ، مُستَهامٍ عميدٍ فيك مضى الفؤادِ، واهي العمادِ²

وقد تدعو المناسبات الدينية إلى المديح النبوي كعيد رأس السنة الهجرية، وزيارة قبر الرسول ﷺ، فالشاعر محمد بن كمال الحسيني³ حينما زار المدينة المنورة في موسم الحج راح يعبر عن إعجابه وحبه لرسول الله ﷺ، ويدعو للمدينة المنورة بالسقيا لأنها تضم جسده الحبيب وذلك بمثل قوله:

حياكِ يا طيبة الغراء مبتكراً من الحياءِ جزيلُ النقعِ منسكبُ
فلي بأفقيك بدرٌ كاملٌ أبداً في حبه مهجتي والروح أحسبُ⁴

¹ محمد بن إبراهيم العمادي (1075-1135) شاعر ومدرس من دمشق، شعره كثير، ينظر له في: الحافظ، محمد مطيع، ونزار أباطة، علماء دمشق وأعيانها في القرن الثاني عشر الهجري (بيروت: دار الفكر المعاصر، ودمشق: دار الفكر، 2000) ج1، ص464، وسيرد باسم علماء دمشق، القرن 12 هـ.

² المرجع نفسه ج1، ص475، وينظر لمثله في المرجع نفسه، ج3، ص68.

³ محمد بن كمال الدين حمزة الحسيني (1024-1085) شاعر من دمشق، كان نقيب الأشراف، ينظر له في: الحافظ، محمد مطيع، وأباطة، نزار، علماء دمشق وأعيانها في القرن الحادي عشر الهجري (بيروت ودمشق: دار الفكر المعاصر ودار الفكر، 2000) ج2، ص423 وسيرد باسم علماء دمشق ق 11 هـ.

⁴ المرجع نفسه ج2، ص423.

ومجاورة قبر الرسول ﷺ تدعو إلى التعلق به أيضاً، فهذا يحیی الإحسانی¹ ترك بلاده وجاور المصطفى ﷺ، وكان هذا أمراً معهوداً في المجتمع الإسلامي، فانطلق لسانه في التعبير عن حبه له، وإعجابه به، وشغوره بالأمن والطمأنينة إلى جواره، كيف لا وهو الجواد الكريم، الذي يعين من استعان به، يقول في ذلك:

وجنحتُ مشتاقاً لطيبة قاصداً غوث الوری، بحر الحقائق أحمداً
وحللتُ ساحة جوده مُستمسكاً بالعروة الوثقى فلا أخشى الردی²
وقد تدعو الحروب والكوارث الطبيعية إلى تذكر الرسول ﷺ وشريعته، فالشاعر عمر اللبقي³ يعود إلى ربه إثر زلزال حدث في حلب، فأودي بحياته كثير من أبنائها، وهدم العديد من مبانيها، ثم يلجأ إلى الرسول ﷺ ليشفع للمسلمين عند الله ﷻ بجاهه الشريف، فيقول:

أيا مَفزَع الجاني وأكرم شافعٍ وأعظم مبعوثٍ، وأشرف من مشى
إليك أنبأ والتجأنا فنحن من الخطب والزلال قد خاف واحتشى
عليه، وأسبل ذيل أمنك واكفهِ بجاهك عند الله في الصبح والمساء⁴
وهناك عوامل أخرى دعت إلى المديح النبوي، منها عوامل كتوبة الشاعر بما اقترفت يده، وذكره لله ولرسوله في هذا المقام، ومنها أدبية كالإعجاب بقصيدة نبوية والرغبة في معارضتها، إلخ... ولا يتسع المقام لذكر جميع الأسباب في هذا التمهيد الموجز، وفيما ذكر وسيدكر غناء.

¹ يحيى بن علي باشا الإحسانی (1023-1095) شاعر متصوف من الإحساء، جاور في المدينة المنورة، ينظر له: العصامي، عبد الملك المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي (قطر: المطبعة السلفية) ج4، ص547.

² نفسه ج4، ص548.

³ عمر بن حسين اللبقي (1116-1189) شاعر من حلب: المرادي، محمد خليل، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (بيروت: دار البشائر الإسلامية ودار ابن حزم، 1988م) ج3، ص173.

⁴ المرجع نفسه ج3، ص173.

من خلال دراستي للمدائح النبوية في شعر العصور المتابعة عامة، وفي العصر العثماني خاصة تبين أن مدائح العهد العثماني تمتاز بمظاهر متعددة تتعلق بالمضمون، من أهمها:

1 - احتواء المدحة النبوية كسائر قصائد المديح النبوي السابقة على ذكر خلال الرسول ﷺ وشمائله المادية والمعنوية¹ فالشاعر محمد بن عمر العرضي² يعرض علينا صفات النبي ﷺ المادية فيذكر أنه كان أبيض اللون، أفنى الأنف، طلق الجبين، أفرق السن، أزج³ الحاجبين، وأنه كان إذا مشى مشى هرولة⁴ وكأنه يحط من عل، يقول في ذلك:

استمع جليّة النبيّ المكّنى من لآلِ فرائدِ ذاتِ معنَى
أبيضُ اللونِ، أنْفُه كان أفنى ذو جبينٍ طَلِقٍ وأفْرَقَ سِنًا
خافضُ الطُّرْفِ هَيْبَةً وحياءً وله حاجبٌ أزجٌ مُثْنَى
إن يسر سار جملةً كاخطاطٍ من علوّ يجوزُ ركنًا فركنًا⁵

وهذه السمات هي نفسها المنقولة من حديث أم معبد حينما زارها الرسول ﷺ ووصفته لزوجها، ومن حديث علي بن أبي طالب عليه السلام في نعتة⁶. وذكر صفات المدوح المادية أمر معهود عند الشعراء، يقول الصفدي في شرح لامية العجم: "وما زال الشعراء يصفون المدوح بالحسن والصباحة والطلاقة ويشبهونه بالشمس والبدر والصبح"⁷.

¹ لن أتحدث عن المقدمة الغزلية أو غير الغزلية لأنها ستذكر في منهج القصيدة النبوية عند الدراسة الفنية.

² محمد بن عمر العرضي شاعر حلي وفقيه (ت 1071) ينظر له في: الحلي، محمد راغب الطباخ، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تحقيق محمد كمال (حلب: دار القلم العربي، ط2، 1989) ج6، ص299.

³ المرجع نفسه، ج6، ص307.

⁴ ينظر لوصف النبي ﷺ مادياً في: المباركفوري، صفي الدين، الرحيق المختوم (بيروت: دار الكتب العلمية، 1988) ص440-441، وهو وصف مطابق لما ورد عند الشاعر.

⁵ سالم محمد محمود، المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي (دمشق: دار الفكر، وبيروت: دارالفكر المعاصر، 1996) ص35.

وقد بلغ الأمر بمدح الرسول ﷺ أن أعجبوا بكل ما يتعلق به ﷺ حتى بصورة نعله، لدرجة أن ألف أحمد المقرئ كتاباً في مثال نعل الرسول ﷺ سماه "فتح المتعال في مدح النعال" أورد فيه ما قيل في هذا النعل، ومما ذكره قول الشاعر فتح الله البيلوني¹ الذي بالغ فيه كثيراً حين جعله يشفي من المرض، مجرد أن يضعه المبتلى على خده ويتضرع إلى ربه فينال بذلك الغنى ويدفع عنه البلاء، يقول في ذلك:

مثال نعل خير الأنبياء هو الباب المجرَّب للشفاء
والصِّقُّ بخدِّ منك واضرَعُ يجدُّ في التوجُّه للدعاء
يزيح عَنَّا، يُبِلُّ غَنًى، ويولي مُنًى، منائِقَرَّب كلِّ ناءٍ²

أما سماته المعنوية فقد أفاض الشعراء في الحديث عنها مقلدين في ذلك المداح السابقين. وقد ذكر الشاعر مكِّي الجوهري³ من خلاله ﷺ الكرمية هدايته البشرية إلى الطريق السوي بشريعته الغراء، وجوده وسخاءه، وإنجاده من يستغيث به عند الشدائد، يقول في ذلك:

أنت شمسُ العلومِ بحرُ العطايا منبعُ الفضلِ سيِّدُ الأنبياءِ
أنت مصباحُ كلِّ جودٍ، وتهدى كلُّ سارٍ إلى الطريقِ السَّواءِ
فنداك المأمولُ في كلِّ ضيقٍ ومُرَجَّى بشدَّةٍ ورخاءٍ⁴

1 فتح الله البيلوني شاعر حلي فقيه ومفسر، وله كتب في العقيدة. ينظر له في إعلام النبلاء، ج6، ص 225.

2 المقرئ التلمساني، أحمد بن محمد، فتح المتعال في مدح النعال تحقيق علي عبد الوهاب وعبد المنعم فرج درويش (القاهرة: دار القاضي عياض للتراث، 1997) ص 223 - 224. وقد ألف المقرئ هذا الكتاب ليجمع ما قيل من مدائح نبوية ذكر فيها مثال نعل النبي ﷺ. وينظر لمثله في إعلام النبلاء ج7، ص 14.

3 مكِّي بن سعيد الجوهري (ت 1192) شاعر من دمشق أصله من حلب وله ديوان ومؤلفات، ينظر له في علماء دمشق، ق 12 هـ، ج3، ص 379.

4 المصدر نفسه ج3، ص 380.

كما حوى مضمون المدحة النبوية حديثاً عن معجزات الرسول ﷺ، ولا سيما حادثة الإسراء والمعراج ونبع الماء من بين يديه الشريفتين، من ذلك قول الشاعر علي بن محمد المرادي¹ حول إسرائه إلى المسجد الأقصى، وصلاته إماماً للأنبياء، ثم عروجه إلى السماء حتى كان قاب قوسين من ربه الذي أثنى عليه وأكرمه، وتلك منزلة لا تعادلها منزلة، ولا يمكن لمدحة أن توفيه حقها:

أنتَ الذي في الأنبياءِ جميعهم كنت الإمامَ وما برحتُ مُقدِّماً
ولقد عرجتَ على البراقِ مصاحباً لأمينِهِ يا خيرَ مَنْ وطئَ السَّما
من ذا يرومُ ثنا علاكِ بمدحةٍ والله قد أثنى عليك وعظماً²

ومن معجزاته ﷺ أيضاً القرآن الكريم وحنين الجذع، وسعي الشجر إليه، وجريان الماء من كفه الشريفة، وتحول خشبة أعطاها الرسول ﷺ لعكاشة إلى سيف طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدية. يقول الشاعر عبد الواحد بن المواز³ في ذلك:

وأُنزل قرآناً عليه مفصَّلاً أصارَ جميعَ الملحين كجلمـِـدٍ
ووافَتْ له الأشجارُ تسعى كما جرى بكفه ماءً قد روى اللَّجِبَ الصَّدي
وقد هزَّ عزمًا حيث لاقى عكاشةً فعادَ لديه كالصقيلِ المِهْدِ⁴

¹ علي بن محمد المرادي (1132 - 1184) شاعر دمشقي كان مفتي دمشق، ينظر له في علماء دمشق ق 12 هـ، ج 3، ص 265.

² المرجع نفسه، ج 3، ص 265.

³ عبد الواحد بن المواز، شاعر وفقيه من المغرب، عاش في القرن الثالث عشر الهجري ينظر له زيدان، عبد الرحمن، إتخاف أعلام الناس بجمال أخبار مكناس (د.م، 1348) ج 2، ص 198.

⁴ المصدر نفسه، ج 2، ص 199، وينظر لمعجزات الرسول ﷺ في ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، 1974) ج 1، ص 172، 216، ج 2، ص 32 وج 2، ص 202 وج 3، ص 198 وج 4، ص 123-127.

وفي مدائح العصر النبوية يلقانا أيضاً حديثاً عن الصحابة الكرام، وجهادهم مع الرسول ﷺ، إذ كانوا رهباناً في الليل فرساناً في النهار، صُبراً في الحرب، إلا أنهم لا يفخرون إن حازوا الغنائم، لأنهم يرون أن الحياة يكفي فيها درع وجواد وسيف، وما سوى ذلك من مال فهو مكتسب للآخرة، يقول الشاعر أحمد بن علي بن المشرف¹ في ذلك:

ولهُ صَحْبٌ لِيُوْثُ هُمُهم لِدَمِ الْكُفَّارِ فِي الْهِيَجَاءِ سَفْحُ
فَهُمُ الشَّجْعَانُ إِنْ جَاءَ الضِّيا وَهُمْ الرُّهْبَانُ مَهْمَا جَنَّ جُنْحُ
لَا تَرَى فَخْرًا إِذَا تَنَالُوا وَلَا هُمْ جُرْعًا إِنْ نَالَهُمْ فِي الْحَرْبِ قَدْحُ
فَهُمُ الْأَنْصَارُ، لِلدِّينِ لَهُم أَبَدًا فِي نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ كَدْحُ²

2 — وهناك مدائح نبوية جاءت في **مطولات شعرية** تجاوزت ثلاثمئة بيت، إذ لم تكتف بالحديث عن الرسول ﷺ، وإنما انتقلت إلى الثناء على أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، ثم تطرقت إلى الحديث عن خلفائه من بعده، على نحو مطولة أحمد بن المقرئ³ التي تحدث فيها عن أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها فأشاد بمكانتها عند الرسول ﷺ وبمساندتها له حينما جاءته الدعوة، فكانت ملجأً له ومعيناً. يقول في ذلك:

خديجةُ عِرْسُهُ الْأَوَّلَى، الْعَلَى لَهَا مَكَانَةٌ عِنْدَهُ مَا نَالَهَا الْأَخْرُ
وَالْبَرَّةُ الْمُرْتَضَاةُ الْأَنْسِ حِينَ رَأَى جَبْرِيلَ فِي أَفْقٍ فَاعْتَمَّهُ الْحَذَرُ

¹ أحمد بن علي المشرف، شاعر من نجد من أنصار الحركة الوهابية ومن رثاها في محتتها، ينظر له في الألويسي، علاء الدين بن لقمان، الدر المنثور في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر (بغداد: دار الجمهورية، 1967) ص96.

² ابن مشرف، أحمد بن علي، ديوان الإمام أحمد بن علي بن مشرف تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري (الدوحة: دار إحياء التراث الإسلامي)، ص21.

³ أحمد بن المقرئ التلمساني (ت 1041) مؤرخ وشاعر له كتاب نفع الطيب، ينظر له في: ابن معصوم، أحمد نظام الدين الحسيني، سلافة العصر (القاهرة: 1324) ص74، والزركلي، خير الدين، الأعلام - قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (بيروت: دار العلم للملايين، 1986)، ج1، ص237.

وزيرة الصّدق في الإسلام ملجؤه إذ لا وزيرَ له فيه ولا وزراً¹
ومن ذلك أيضاً مطولة أحمد بن المشرف الذي تحدث فيها بعد المديح النبوي عن
عهد الخلفاء الراشدين، ثم أتبعه بذكر خلافة بني أمية والعباسيين، ومنها قوله في
الأمويين الذين كان أولهم معاوية بن أبي سفيان صهر النبي ﷺ والمعروف بعدله
وحلمه، وسليمان بن عبد الملك الذي أسند الخلافة إلى العادل عمر بن عبد العزيز
الذي حكم بشرع الله. يقول في ذلك:

بنو أمية أملاك غطارفه² حازوا الخلافة بعد السادة الخلفاء
منهم معاوية صهر النبي ومَنْ قد كان بالحلم والإنصاف متّصفا
لكن سليمان أفضاها إلى عمر أكرم به من إمام تابع السلفا
أحيا سبيل الهدى من بعد ما درست وأظهر العدل وقت الجور حين عفا²

وبعض المدائح النبوية جاءت ضمن مدائح الأشراف من الحكام وغيرهم. وفي
هذا المجال ترد مقتضبة سريعة، لأن الغاية هي إظهار قرابتهم من الرسول ﷺ، من
ذلك قول الشاعر عبد الرحمن بن عيسى المرشدي³ في مدحة له للشريف حسن وابنه
طالب، إذ ذكر أنه ينتسب إلى أفضل الرسل سيدنا محمد ﷺ الذي نصره الله بالرعب
من مسيرة أشهر، يقول:

ملكٌ تذكّرنا مواقع حدّه في الهام وقعة جدّه في خير
أعظم بها من نسبة نبوية علوية تُنمى لأصلٍ أظهر

¹ فتح المتعال، ص 537.

² ديوان أحمد بن علي بن مشرف، ص 87.

³ عبد الرحمن بن عيسى المرشدي (975 - 1037)، شاعر من الحجاز، كان مفتي الحرم المكي، ثم قتله الشريف أحمد بن عبد المطلب. ينظر له في: المحي، محمد أمين بن فضل الله، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (القاهرة: المطبعة الوهية، 1869)، ج 2، ص 369.

قد شُرِّفَتْ بَدْءاً بأشرفِ مُرْسَلٍ ونهايةً بالسَّيِّدِ الحَسَنِ السَّري
لا زلتما في ظلِّ ملكٍ باذخٍ وجنودُ ملككم ملوكُ الأعصر
مستمسكينَ بهديِ جدِّكمُ الذي بالرعبِ ينصر من مسافةِ أشهر¹

3- وأحب أن أشير إلى أن مدائح لأنبياء آخرين وجدت في هذا العصر مستقلة عن المدائح النبوية للرسول ﷺ من ذلك قول الشاعر عثمان الخطيب² في تقرُّبِ سيدنا زكريا عليه الصلاة والسلام الذي ثوى في حلب الشهباء، وكان عند ربه مرضياً، وقد ناجى هذا النبي ربه سبحانه وتعالى علَّه يرزقه غلاماً زكياً بحيث يرث النبوة والعلم منه، فاستجاب المولى تعالى ندائه، ورزقه ولداً تقياً، يقول في ذلك:

وإذا ما حللتَ في حلبِ الشهباء فاقصِدْ هنالك بـدراً هَيَّأ
قُبْلِ الأرضِ عنده واتلُ جهراً ذكراً مولاك عبده زكريَّاً
وتَرَجَّ الندى فأنت لدى مَنْ لم يكن بالدعاء قطُّ شقيَّاً
خافَ من بعدُ ضلالَ الموالي فدعا ربَّه دعاءً خفيَّاً
وهنَّ العظمُ وامتأَّ الرأسُ شيباً ياإلهي فمنك هب لي وليَّاً
يرثُ العلمَ والنبوةَ مني ولدى ربِّه يكون رضيَّاً
فاستجابَ الدعا وبشَّره مَنْ لم يزلْ محسناً جواداً غنيَّاً
بغلامٍ كبدريِّ تمُّ ولم يحِمْ علَّ بديعُ السَّما ليحيى سميَّاً³

وقد اقتبس الشاعر معاني هذه الأبيات من سورة مريم، كما اقتبس أيضاً حرف الروي من فواصل آياتها، إذ انتهت أبياته بالياء المشددة كما في الآيات القرآنية الكريمة.

1 خلاصة الأثر، ج2، ص272 - 274، وفي قوله (بالرعب ينصر من مسافة أشهر) إشارة إلى حديث الرسول ﷺ المعروف الذي جاء فيه: "ونصرت بالرعب مسيرة شهر"، انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب التيمم، برقم 335، ج2، ص122.

2 الموصلي عثمان الخطيب (ت 1144) شاعر صوفي زاهد من الموصل ينظر له في سلك الدرر، ج3، ص170.

3 سلك الدرر، ج3، ص171، وينظر لمثلها أيضاً في الروض النضر، ج2، ص19-20، في مديح زكريا ويونس.

4 - ولكن كثيراً من مدائح العصر العثماني حوت على غرار أخواتها في العهد المملوكي تطرفاً وحيدة عن جادة الصراط السوي، نجم عن انتشار الفكر الصوفي الذي نظر إلى الرسول ﷺ نظرة تقديس تجاوزت الحد، وقد بدا هذا في:

أ - الاستغاثة: وهي لجوء الشاعر إلى الرسول ﷺ يستنجد به ينقذه من لأواء العيش، ومن جحيم الآخرة في يوم الشفاعة الكبرى، كما فعل الشاعر عبد الرحيم القدسي¹ الذي ذكر أن الرسول ﷺ قد خُصَّ بالشفاعة الكبرى، ولهذا ترجوه الخلائق كلها، وتشير إليه لينقذها من معاناة الحياة:

يوم اللقا سبل النجاة يَلْغُ	هذا النبي الهاشمي مُحَمَّدٌ
جمع الخلائق بالشفاعة يسبغُ	بمقامه المحمود خُصَّ مُشْفَعاً
في فتح باب الفضل ما يتسوّغُ	كلُّ يَشِيرُ إليه ليس لغيره
من بعده أضحي لذلك مسوغ ²	ما نال هذا قبله أحدٌ ولا

وقد يستغيث المداح بجاه الرسول ﷺ أو به مباشرة ليخلصهم من بلوى أصابتهم. فالشاعر عبد الحي الخال³ يستنجد بالرسول ﷺ وكان قد جاوره، علّه يشفيه من مرض عضال ألم به، وكأنه قد ذكر البوصيري⁴ والحلي⁵ اللذين شفيا بقصيديتهما، وكأنه

¹ عبد الرحيم بن أبي اللطف القدسي (ت 1104) شاعر ومغني في ديار القدس، سلك الدرر، ج 3، ص 2.

² سلك الدرر، ج 3، ص 5، وينظر لمثلها أيضاً في المرجع نفسه ج 2، ص 198.

³ عبد الحي بن علي المعروف بالخال الطالوي الأرتقي (ت 1117) شاعر متصوف من دمشق، له موشحات كثيرة، انظر عنه علماء دمشق ق 12 هـ، ج 1، ص 153.

⁴ محمد بن سعيد البوصيري (608-697)، شاعر مصري كان قد أصيب بالفالج فنظم مدحة نبوية وقرأها كثيراً، فرأى النبي ﷺ يمسح على رجله، فلما استيقظ رأى أن الله قد شفاه. ينظر إلى ذلك في مقدمة ديوانه ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيد كيلاني (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1955)، ص 5.

⁵ عبد العزيز بن سرايا الملقب بصفي الدين الحلبي (677-750)، شاعر من الحلة في العراق، عرف بمدائحه لبني أرتق، وببديعته التي ذكر أنه شفي بها من الفالج أيضاً، ينظر له في الصفدي، خليل بن أليك، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبو زيد وآخرون (دمشق وبيروت: دار الفكر ودار الفكر المعاصر، ط 1، 1998م)، ج 3، ص 68.

كان يعتقد أن الرسول يسمع الاستغاثة به كما يسمع الصلاة عليه، ولهذا راح يرجوه أن ينظر إليه بعين الرأفة، يقول شاكياً له ﷺ:

رسول الله قد أصبحت نضواً من الأوجاع منطرحٌ عليلٌ
وقد عجزَ الطبيبُ وقلَّ صبري وأقلقَ جيرتي مني العويلُ
ولم ألقَ لأدواءٍ تراءتْ على جسدي وأعظمها الدخيلُ
سوى أي نزلت وقلتُ حسبي كريمٌ لا يُضام به نزيل¹

ومن الأفضل ترك هذا والاستغاثة بالمولى تعالى الذي قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: 186) ولأن الرسول ﷺ قال: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».²

ب — ومن هذا التطرف أيضاً اعتقاد المتصوفة من مداح النبي ﷺ في فكرة النور المحمدي، وتعني أن الله سبحانه قد كون الرسول ﷺ من نوره قبل أن يخلق آدم عليه السلام، فكان بذلك أول مخلوق في الوجود، ثم انتقل هذا النور من صلب نبي إلى آخر حتى ظهر في النبي ﷺ ليكون خاتم المرسلين والنبیین، وقد عبر الشاعر إبراهيم الفتال³ عن هذا بقوله:

سيد المرسلين خيرُ نبيٍّ شافعُ الخلقِ يوم تُثلى العيوب
مبدأ الكون ختم كلِّ نبيٍّ قد حباهُ الحيا قريبٌ مجيب⁴

1 علماء دمشق 12 هـ، ج 1، ص 163، وينظر لثله أيضاً في سلك الدرر، ج 2، ص 70، وقد وردت الاستغاثة بحماه الرسول ﷺ في التمهيد عند ذكر الكوارث الطبيعية، ينظر لذلك ص 6.

2 سنن الترمذي، رقم الحديث (2440) وينظر في الرد على الاستغاثة في: المنجد، محمد صالح، محرمات استهان بها الناس (الرياض: دار الوطن للنشر، ط 2، 1414)، ص 17 — 18.

3 إبراهيم الفتال (ت 1098)، شاعر ومدرس من دمشق من شعراء القرن الحادي عشر الهجري: علماء دمشق ق

ج هـ، ج 2، ص 524.

4 المرجع نفسه، ص 527.

وكذلك قال سعدي العمري:¹

نبيُّ به الأَكْـوَانُ من نورِ ذاتِهِ تبَدَّتْ لكِي يَبْقَى لها شرف المبدأ
نبيُّ حوى سرَّ الوجودِ واهتدى وآدم ما عانى الحياة، ولا اعتدى
وقُدِّسَ في الأرحامِ أصدافُ نورِهِ وكيف؟ وقد ضُمَّتْ به الجوهرَ الفردِ
إلى أن تجلَّى للوجودِ وأشرقت أسرته كالشمس والقمر الأهدى²

ويقول أصحاب فكرة النور المحمدي إنه لولا الرسول ﷺ لما كان هناك أرض ولا سماء ولا وجود، ولا جنة ولا نار، لأن الله سبحانه لم يخلق هذا كله إلا من أجله، فكل فضل منوط به. ويردد عبد الله حجازي³ هذا بقوله:

إني وفيه ذلك النورُ الذي بضياؤه يهدي إلى المعبودِ
أعني به طه الأمين المصطفى سر الوجود خلاصة الموجود
ولأجل خدمته الجنان تزخرت ومن السعادة خدمة المسعود⁴

ويقول الشاعر أحمد العكي⁵ في مبالغة وتطرف شديدين أيضا:

نبيُّ هدى، لولاه ما نال آدمُ سجل الرضى مما أصاب وما أبدى
وما خمدت نارُ الخليل التي غدت تشب ولا كانت سلاماً ولا برداً
ولا أنس النور ابنُ عمرانَ عندما تجلَّى له من جانبِ الطورِ فاهداً

¹ سعدي العمري بن عبد القادر (1080-1147)، شاعر وعالم من دمشق: سلك الدرر، ج2، ص151، وينظر مثله في علماء دمشق ق 12 هـ، ج3، ص401.

² سلك الدرر، ج2، ص152-153.

³ عبد الله حجازي (1096هـ) شاعر ونقيب الأشراف في حلب، له مؤلفات متعددة: خلاصة الأثر، ج3، ص71، وفي كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1975)، ج6، ص115.

⁴ الجندي، أمين، ديوان الشيخ أمين بن خالد الجندي، تحقيق محمد كمال بكداش (بيروت: مطبعة المعارف، 1321 / 1999-2000) وقد خمسه الجندي فحفظها كاملة.

⁵ أحمد العكي المعروف بيطحيش (1095-1147)، شاعر وعالم من عكا، له مؤلفات عديدة: سلك الدرر، ج1، ص152.

ولا شملت من قبلُ قِيضةُ نورِهِ سرائرُ أهلِ العزمِ فامتَلأتْ رَشداً¹
ويقول أحمد شاعر الحكواتي² في مغالاة لا يمكن قبولها بأي حال من الأحوال:
ووجودُ الأكوانِ والعرشِ والكر سيِّ واللوحِ من سنا أنوارك³
وهذه المغالاة قلد بها الشعراء العثمانيون متصوفة العهد المملوكي، فالشاعر
البوصيري مثلاً يقول في برده:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورةً من لولاه لم تخرج الدنيا من العدمِ
وكلُّ آيٍ أتى الرسلُ الكرامُ بها فإنما اتصَلَتْ من نورِهِم هم⁴
وفي هذه المبالغة والتطرف اللذين ما أنزل الله بهما من سلطان حَيِّدة عن الحق
وقد نبه الله سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا
إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (الكهف: 110، فصلت: 6). ويكفيه فخراً وعظمة أنه رسول رب
العالمين الذي اصطفاه خالقه من بين مخلوقاته كلها لهداية البشرية إلى الطريق القويم،
وأنه أثنى عليه بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 4).

ج- ومن التطرف في المدائح النبوية أيضاً حديث الشعراء عن رؤيا الرسول ﷺ
ربه عز وجل في يوم الإسراء والمعراج، فالشاعر أبو السعود المتنبّي⁵ يذكر أن الرسول
ﷺ قد ارتقت منزلته حين وصل إلى حضرة القدس ورأى ربه من غير حجاب فنال
بذلك ما يتمناه، يقول:

1 سلك الدرر، ج1، ص153.

2 أحمد بن عمر الشاكر الحكواتي (1121-1165) شاعر من دمشق كان كثير التطواف. سلك الدرر، ج1، ص155.

3 سلك الدرر، ج1، ص155، وينظر للرد على من قال إن الوجود كله قد خلق من أجل الرسول ﷺ في شقفة،

محمد فهر، التصوف بين الحق والخلق (الصفاء / الكويت: الدار السلفية للنشر والتوزيع، 1983)، ص79-80.

4 ديوان البوصيري، ص194.

5 أبو السعود سعود بن يحيى المتنبّي (ت1127): شاعر من دمشق له ديوان شعر سماه مدائح الحضرات بلسان

الإشارات: علماء دمشق ق12هـ، ج1، ص314.

سيدٌ قد سما لحضرةٍ قدسٍ نال فيها مُرادَه وسؤاله
ورأى ربّه بدونِ حجابٍ وتجلّى له وحازَ وصاله¹

خصائص المديح النبوي الفنية

ظهرت في مدائح العصر العثماني النبوية خصائص في منهج القصيدة، وفي موسيقاها، وفي تشكيلها اللغوي:

1- منهج القصيدة

كان النموذج التقليدي للقصيدة العباسية لا يكاد يختلف عنه في عصر الدول المتتابعة، ومنه العصر العثماني. وقد قلّد شعراء المديح النبوي هذا المنهج مع تغيير يناسب المقام، فاستهلوا كالأقدمي بالمطلع الغزلي، الرمزي منه و غير الرمزي، لأنهم، ولا سيما مداح الرسول ﷺ، عدّوا الغزل منتزِعاً من صميم الحياة البشرية، متصلاً بأعمق أعماقها، صادراً عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص، والإيمان العميق بصدق صاحب الرسالة المحمدية، واعتقاد جازم باستحقاقه للحب الشديد الذي لا يعادله حب.

ولكن هذا الغزل اتسم بالسمو الخلقي والفكري، إذ تخلّى عما يشين فبدا محتشماً، وعني شعراؤه بذكر الأماكن الحجازية والشوق إلى صاحبها² يقول ابن حجة الحموي³: "إن الغزل الذي يصدر عن المديح النبوي يتعين على الناظر أن يحتشم فيه ويتأدب ويتضاءل، مطرباً بذكر سلع ورامة، وسفح العقيق والعذيب، والغوير ولعلع،

¹ المرجع نفسه، ص321.

² القبرواني، الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة) ج2، ص124، والموسى، فيروز، مقال بعنوان "المقدمة الغزلية للمدحة النبوية"، مجلة مجمع اللغة العربية بالأردن، 1999م، عدد 57، ص84.

³ ابن حجة الحموي (767-837) شاعر من حماة عرف ببديعته وبأسلوبه المصنوع، وله كتاب خزانة الأدب. ينظر له في درنيقة، محمد أحمد، معجم أعلام شعراء المدح النبوي (بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1996) ص48.

وأكناف حاجر، ويطرح ذكر محاسن المرد والتغزل في ثقل الردف ورقة الخصر...
وقل من يسلك الطريق من أهل الأدب".

فمن الغزل الرمزي الذي توفرت فيه هذه الشروط قول الشاعر أحمد الجامي¹
وهو يذكر الأماكن الحجازية في مستهل مدحته النبوية:

ما لذ لي بعدكم يا عربَ ذي سلمٍ رُبُّعٌ ومن بُعدكم جفني القريحُ دُمي
وما جرى ذِكْرُ ذِيكَ العقيق وما والاه إلا جرى مني عقيقُ دمي
ولا جَرَتْ نسماتٌ من دياركم إلا أهاجَتْ بقلبي لا عَجَ الألم
لهفي على الروضة الفيحا ومُنِيرها وَقَفَةٌ بمصلى سَيِّدِ الأُمَمِ²

وبعض الشعراء استهل بالغزل بفتاة أحلامه، لكنه ذكر بعد أنه ترك هذه السيرة
وتوجه إلى الرسول ﷺ ليمدحه على خلاله الحميدة، من ذلك قول خليل البكري:³

أَيُّ دَمْعٍ لَا يَسْحُ وَشَحٍّ فِي الْحَبِّ يَصْحُو
كَيْفَ أَصْحُو مِنْ غَرَامٍ فِيهِ لِلْعِشَاقِ نُجْحُ
يَا عَذُولِي دَعْ مَلَامِي فَدَوَامُ اللُّؤْمِ قَبْحُ
وَدَعْ الْمَجْرَ فِقْلَبِي أَلَا أَنْ يَثْنِيهِ مَدْحُ
لِرَسُولٍ جَاءَ بِالْأَنْفِ وَارٍ لَيْلَ الشَّكِّ يَمْحُو⁴

¹ أحمد الجامي المدني شاعر من المدينة المنورة (ت بعد 1200) ينظر له في البيطار، عبد الرزاق، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تحقيق محمد بهجة البيطار (بيروت: دار صادر، 1993)، ج1، ص287-288.

² المرجع نفسه، ج1، ص287-288.

³ خليل البكري الصديقي (1098-1173) كان مفتي دمشق، وتوفي في إستانبول، ينظر له في علماء دمشق

12هـ، ج3، ص143.

⁴ المرجع نفسه ج3، ص143، وينظر لمثله في المرجع نفسه ج3، ص400.

واستهل بعضهم مدحته النبوية بمناجاة المولى تبارك وتعالى، وقد ذكر عمر موسى باشا أن الشاعر فتح الله بن النحاس¹ قد جدد في ذلك، يقول: "إن الجديد الملاحظ في هذه المدحة النبوية أن الشاعر لم يقصرها على مدح الرسول ﷺ كما هو معروف في النبويات، وإنما رأيناه يتجاوز أسلوب الشعراء فيخاطب الله مباشرة... وهذا الاستخدام فيما أعتقد أسلوب جديد وتطور ملحوظ في المدائح النبوية يطالعنا به الشاعر لأول مرة في تأريخ النبويات". ويعلل ذلك بأنه ناجم عن التأثير بالفكر الصوفي² ولكن الدكتور موسى باشا يذكر في كتابه العصر المملوكي أن الشاعر المملوكي ابن مليك الحموي (ت 917هـ) استهل مدائحه النبوية بمناجاة الله عز وجل،³ وبذلك يكون هو البادئ بذلك لا ابن النحاس، يقول ابن النحاس:

يا مَنْ لَمَن يَدْعُوهُ سَامِعٌ	وإليه منه الأمرُ راجِعٌ
يا رَبُّ ناصيتي تَرا	بُكَ ما كَتَبْتَ عليه واقِع
ماذا يَضُرُّكَ وهو عا	صٍ أو يَفِيدُكَ وهو طائِع
أنا عبدك الشيخ المَسي	ءُ لَباب عَفْوَكَ جئتُ قارِع
ما في يديٍّ ولا لَديٍّ	من الوسائِلِ والذرائِع
إلا مجاورَةَ الكَرا	مِ غيوثِ سَليحِ والأجارِع
خيرِ الخلائِقِ نائِلاً	ووثقى وأكرِمهم طَبائِع ⁴

¹ فتح الله بن النحاس (ت 1052)، شاعر حلبي عرف بأسلوبه المطبوع. كان لاهياً عابثاً ثم تاب وجاور الرسول ﷺ ودفن في البقيع، ينظر له في الحفاجي، أحمد بن محمد، ربحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، تحقيق عبد الفتاح الحلو (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1967)، ج 2، ص 223، وسلافة العصر، ص 276، والأعلام، ج 5، ص 153.

² باشا، عمر موسى، العصر المملوكي (دمشق وبيروت: دار الفكر ودار الفكر المعاصر، 1989)، ص 102-103.

³ باشا، موسى، العصر العثماني (دمشق وبيروت: دار الفكر ودار الفكر المعاصر، 1989)، ص 399-400.

⁴ الخطراوي، محمد العيد، ديوان فتح الله بن النحاس (المدينة المنورة: مكتبة دار التراث، 1991)، ص 94، والطباخ، محمد راغب، العقود الدرية في الدواوين الحلبية (حلب: المطبعة العلمية، 1347)، ص 5.

وقد يناجي بعضهم الرسول ﷺ، ويذكر الشباب الذي ولّى والموت الذي قرب، وتأخير التوبة وضرورة طاعة الله سبحانه و تعالى الذي نجبه، ثم يروح يقول: ولكن ما حيلتنا إذا كان أعداؤنا يكيدون لنا وهم أنفسنا وأهواؤنا، ثم يستدرك ويقول: ولكن الرسول ﷺ هو طيبنا الذي ينقذنا من شرها وضرها يقول إبراهيم القتال في ذلك:

كلنا سيدي إليك نؤوب	مالنا لا نعي اللقا ونتوب
إن عمرَ الشبابِ ولّى وأبقى	ما جناه فيه وذاك ذنوبُ
فإلى كم هذا التواني وقد جا	ء نذيرُ الحِمام وهو المشيب
ندعي الحبَّ فريةً إنما الحبُّ	حريٌّ بأن يطاعَ الحبيب
إن أعداءنا توالى علينا	نفسنا والهوى وعقلٌ مريب
من يرَجى لدفع داء عضال	غيرُ خيرِ الورى وذاك الطبيب ¹

وقد استهل بعضهم نبوته بوصف الطبيعة وجمالها البديع في فصل الربيع حيث الرياض المنعشة، والطيور المغردة التي تبدو كحسان الجنة، وكأن هذه الطبيعة الفاتنة قد ذكرتهم بالمولى تعالى وبرسوله ﷺ، يقول الشاعر يوسف الحسيني² قبل أن يبدأ في مدح النبوة:

جاء فصلُ الربيع والصيفُ دانٍ	حيث بتنا من الجفا في أمان
في رياضٍ إذا بكى الغيثُ فيها	قهقهَتُ بالمدام منه القناني
حيث سجعُ الطيورُ سجعُ خطيبٍ	قد رقى مُعلِناً على الأغصان
وكان الغصونَ قاماتُ غيدٍ	حين ماستُ حورٌ لدى الولدان ³

وهناك من هجم على موضوعه مباشرة، ولكن ابن رشيق القيرواني عاب على من فعل هذا، وسمى قصيدته البتراء. أما ابن الأثير فقد بين أن ذلك يمكن في قصائد

¹ علماء دمشق، ق 11 هـ، ج 2، ص 525-526.

² يوسف بن حسين الحسيني النقيب (ت 1153هـ) شاعر من حلب. ينظر له في إعلام النبلاء، ج 6، ص 479.

³ إعلام، ج 6، ص 481-482.

الحروب والثورات، لأن النفس تتوق إلى سماع الخبر لا الغزل،¹ ولا أرى في ذلك مانعاً، بل أراه يدل على توق الشاعر الشديد للرسول ﷺ توقاً جعله يذكره منذ مطلع قصيدته، أو لعل حاجته دعته إلى الاستنجاد به كما يستنجد الملهوف بجيش قوي على نحو قول الشاعر مكّي الجوخني:

بك يا سيد الأنام التجائي وعياذي من طارق الأواء

يا ضياء الوجود يا رحمة الله التي ترجى لكشف البلاء²

وعلى أي حال، فالشاعر ينتقل من المطالع والمقدمة إلى ذكر شمائل ممدوحه الرسول ﷺ المادية والمعنوية، وذكر أعماله ومعجزاته. إلا أن بعضهم ذكر رحلته إلى الرسول ﷺ وتحدث عن شوق الناقه إلى رؤيا تلك الأماكن، وكأنه رمز بها إلى نفسه التي أشغفت بالمصطفى الحبيب فسارعت إليه، إلى تلك الرياض الطاهرة التي ترتاح فيها النفس المؤمنة، يقول عبد العزيز الفشتالي³ معبراً عن هذا:

أرحها مطايا قد تمشى بها الهوى تمشي الحمى في مفاصل نشوان

لقد نفحت من شبح يثرب نفحة فهاجت مع الأسحار شوقي وأشجاني

وأذكرني نحداً وطيب عراره نسيم الصبا من نحو طيبة حيّاني

أحنّ إلى تلك المعاهد إنها معاهد راحاتي وروحي وريحاني

إليك رسول الله صممت عزمة إذا أزمعت فالسخط والقرب سيان⁴

وتختتم القصيدة النبوية بالصلاة على الرسول ﷺ، وذلك على نحو قول أحمد الوراق⁵

¹ القيرواني، العمدة، ج2، ص117، وبكار، حسين، بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث (بيروت: دار الأندلس، 1983)، ص213.

² القيرواني، العمدة، ج3، ص380.

³ عبد العزيز الفشتالي (ت بعد 1030 هـ) شاعر من المغرب له مدائح نبوية، ينظر له في سلافة العصر، ص583.

⁴ سلافة العصر، ص584-586.

⁵ الشاعر أحمد بن صالح الوراق (1123-1189هـ) شاعر حلي مطبوع ومعروف له مدائح نبوية كثيرة: إعلام النبلاء، ج7، ص83.

صلى عليك الله ما هبَّت صَبَا سَحَرًا فَهَاجَ الصَّبُّ مِنْ نَفَحَاتِهَا
وكذا على الآل الكرام وصحيك الـ أطهارٍ مَنْ كَرُمَتْ بِطِيبِ ذَوَاتِهَا
أبدًا على مَرِّ الحديد مسلَّمًا لا نال حَسَنُ الحَنَمِ مِنْ بَرَكَاتِهَا
وقد تختم قصائد مدائح الصحابة والأشراف بالصلاة على الرسول ﷺ.²

والمدحة النبوية قد تأتي مطولة تتجاوز ثلاثمائة بيت،³ وقد تكون متوسطة الطول، وطولها يتبع درجة انفعال الشاعر. ذلك لأن القصيدة كأمواج البحر تتابع وتتدفق ما كان هناك دافع يحركها، إلى أن تستقر على الشاطئ، وإن كان النقاد يفضلون ما توسط منها.⁴ والمألوف بين الخمسين ومئة بيت، ولكنها يجمع بينها وحدة عضوية تربط بين أقسامها، لأن موضوعها واحد وإن بدا متعددًا، فالغزل رمز للرسول ﷺ أو يتخلص الشاعر منه بذكر الحبيب المصطفى، فذكره يخلصه مما يعانيه. والطبيعة تذكر بقدرة الله وذكر المولى تعالى يستدعي ذكر الرسول ﷺ، وكذلك حال الشيب والتوبة. أما ما سوى ذلك من مضمون المدحة كالحديث عن صفاته الخَلْقِيَّةِ والخُلُقِيَّةِ، وعن معجزاته وصحابته فهو لب المدحة.

ووحدة البيت أو استقلاليته أمر مفضل في نقدنا العربي القديم.⁵ ولا تعارض بين هذه الوحدة والوحدة العضوية، لأن الرابط الجامع بين المعاني هو التجربة الشعورية والحالة النفسية التي تصدر عنها المدحة.

وأحب أن أبين أخيراً أن هذا المنهج قد رسخه البوصيري في برده، وقلده شعراء العصر، إلا أن بعض المديح النبوي جاء على شكل مقطعات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة كما عند الشاعر محمد أحمد الكجي:⁶

1 سلك الدرر، ج 1، ص 115، وينظر مثلها في حلية البشر، ج 1، ص 88.

2 على نحو قصيدة أمين الجندي في مدح خالد بن الوليد، ديوان الشيخ أمين الجندي، ص 17.

3 مر معنا عند الحديث عن المضمون ذكر مطولة ابن مشرف والمقري وشواهد لهما، ينظر لذلك ص 8-9.

4 بناء القصيدة في النقد، ص 232، وضيف، شوقي، في النقد الأدبي (القاهرة: دار المعارف، 1962)، ص 160.

5 بناء القصيدة في النقد، ص 283.

6 الشيخ محمد أحمد الكجي شاعر من دمشق من القرن الثاني عشر الهجري: سلك الدرر، ج 1، ص 26.

يا رسولَ الرضا ويا خيرَ هادٍ للبرايا ورحمة للناس
طُيبَ ذكراك في فمي كلِّ حينٍ هو أحلى من ماءِ حبِّ الآس¹

2- موسيقى المدحة النبوية

الشعر نغم ينقل صاحبه من عالم إلى عالم، وتسبح فيه الروح بين المعاني والصور فيؤدي إلى نفاذ المعنى إلى شغاف القلب، فيفعل في النفس فعل السحر الحلال وبرد الماء الزلال.²

والمدائح النبوية من أكثر القصائد التصاقاً بالنفس البشرية، ذلك لأنها تخاطب الروح، ويعيش صاحبها مع فضائل المصطفى ﷺ وفعاله فيودُّ لو كان معه ليشعر بطمأنينة النفس، ويتخلص من لأواء الحياة... وإذا كان ذلك قد فاته فليكن له من مديحه الزاد الروحي، وليكن من نعماته وسيلة للتعبير عن خلجات نفسه ووجه، ومن هنا كانت المدائح النبوية إلا ما ندر ذات إيقاعات عذبة شجية، ولعل بعضها صلح لرقته أن يكون نشيداً يترنم به المترنمون.

وقد اتسم أدب العهد العثماني بفيض من القصائد التي تثني على المصطفى الحبيب، ولعل لكثرة التصوف وانتشار الأناشيد الدينية التي يتغنى بها أصحابه أثراً في ذلك. وقد جاء بعضها على موسيقى الشعر التقليدية الخليلية، وأخرى على الموسيقى المستحدثة.³ ولأحاسيس الشاعر ودرجة انفعاله أثرهما الكبير في اختيار البحر أو أنموذج النغم.

¹ المرجع نفسه، ج1، ص26.

² هلال، ماهر مهدي، جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب (بغداد: دار الحرية ودار الرشيد، 1980)، ص44.

³ الموسيقى المستحدثة مصطلح أطلق على ما جدَّ من نغمات موسيقية في الشعر العربي منذ العصر العباسي مما لم يأت على الأوزان العروضية الخليلية، ولا يعني الاستحداث بالنسبة إلى عصرنا هذا.

1- فمن المدائح النبوية التي جاءت على العروض الخليلي التقليدية قول الشاعر

أمين الجندي وقد نظم على البحر الطويل نبويته التي قال فيها:

شمائله تُنبئك عن حسن خلقه فقل ما تشا في وصف تلك الشمائل
وأخلاقه فاه الكتاب بمدحها ولاسيما الإعراض عن كل جاهل¹

فالشاعر أراد أن يعبر عن سمو أخلاق الرسول ﷺ، وسعة حلمه وصدره فاختر البحر الطويل لاتساعه وفخامته، ولأنه أيضاً يصلح للتعبير عن النفس الهادئة المطمئنة. أما الشاعر موسى السباعي² فقد اتكأ على البحر البسيط ليُعرب عن إعجابه بالرسول ﷺ، وذلك في قوله:

الفتاحُ الخاتمُ المفضالُ شافعنا خيرُ النبيينَ من بالشرعِ مرسول³

وقد جاء بالصفات معرفة بأل في انسياب عذب ليشعرنا من خلال التعريف بإعجابه الشديد به، ذلك الإعجاب الذي ولد عنده حيوية ونشاطاً تبدّياً في تفضيله للرسول ﷺ وذكر أعماله الخالدات. أما الشاعر العشري⁴ فقد ترنم بالمديح النبوي على البحر الكامل، وهو بحر متدفق ذو حركات متعاقبة، وتقليلات متعددة، يقول فيه:

لولاه ما الإسلام صار بعزة مُترفعاً والكفر صار مشردا
لولاه ما أمّ الحجاج ليثرب وبإثره حادي المطايا قد حدا
هو صفوة الرحمن، بل هو حجة لله، وهو على البرية أشهد⁵

¹ ديوان الشيخ أمين الجندي، ص2.

² موسى بن عمر السباعي الحمصي (1191-1255هـ) وعالم جليل من حمص، حلية البشر، ج3، ص1567.

³ المرجع نفسه، ص1569.

⁴ هو سعيد بن محمد الخروصي الملقب بالعشري: من شعراء عُمان في القرن الثاني عشر الهجري، ينظر له في مقدمة: محمد عبد المنعم خفاجي، ديوان العشري (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1981).

⁵ ديوان العشري، ص131.

فهو قد اهتزت مشاعره لسمو مكانة الرسول ﷺ فراح يكرر عبارة "لولا ما" وهو يشعرنا بهذا التكرار بطربه لخلاله العظيمة، وكان لهذا أثره في تذوق النص فنياً، إذ استقطب وعي المتكلم وولّد لديه متعة، ولا سيما أن شاعرنا أهّمى تكراره هذا بالتقطيع الموسيقي المتوازن بين "هو صفوة الرحمن"، و"هو حجة لله" الذي أكسب الأبيات أيضاً إيقاعاً جميلاً ونغمًا متموجاً.

ولكن بعض مداح الرسول ﷺ نظموا على أبحر قصيرة، فجاءت مدائحهم أناشيد عذبة، يترنم بها الكبار كما يترنم بها الصغار، لما فيها من نعمة طربة حلوة، فالشاعر أحمد المقرئ يثني على الرسول ﷺ بمدحة على البحر المبحث فيقول:

فاق النبيين جاهاً	وسطوةً وجلالاً
فما لأحمدَ ندري	في المرسلين مثلاً
هذا وإن كان منهم	والكلُّ حازوا الكمالاً
ففي السما نيراتٌ	وكلها تلالاً
وليس منها مضاهٍ	للشمس في النور لا، لا ¹

فهنا نرى التنوين في البيت الأول يضيف عليه رنة عذبة الجرس، وكذلك الحال في تكرار "لا".

يقول الأستاذ غازي طليمات: "إذا انتقلت من النبر الذي يعرف بعض الكلمة لتسغي إلى إيقاع الكلمات المنسوقة في عبارة تامة، وأحسست أن تناغماً خاصاً ينتظمها فقد وقفت على ما تسميه الصوتيات الحديثة التنغيم، وجوهر التنغيم أن يعطي المتكلم العبارة نغمات خاصة تنجم عن عاطفة يحسها، وفكرياً عن معنى يعتلج في ذهنه، وعضوياً عن تغير في عدد الهزات التي تسري في وترى الحنجرة، فيزيد الاهتزاز

¹ فتح المتعال، ص453.

أو ينقص وفق الغرض الذي يتوجه إليه الكلام".¹ وقد تحقق هذا التنغيم العذب في هذه الأبيات لما فيها من تنوين وتكرار لكلمة "لا" في آخر بيت، فضلاً عن تكرارها في الروي بعد حرف الردف الألف. وبذلك شارك الإيقاع الداخلي والخارجي في الدلالة على المعنى، كما شاركت الصورة التشبيهية في ذلك، مما قوى الدلالة وزاد في الإحساس بعظمة خلال الرسول - صلى الله عليه وسلم - المشرقة الوضاءة.

2 - ولالإيقاع أثره في التعبير عن التجربة الشعورية، ولعل هذا يزداد في الموسيقى المستحدثة التي تقوم على تنظيم متوال لعناصر موسيقية متغيرة، ويبدو الإيقاع في "النظام مع التغير وفي التوازي والتكرار"² أكثر طرباً للنفس وإحساساً بعذوبة الأبيات، وما الشعر إلا إيقاع يعكس ما في النفس من أحاسيس ومشاعر،³ وكان العرب منذ العصر العباسي قد فتحوا الباب أمام الشعراء لينوعوا في أنغامهم، وقد أجاد بعضهم فقلد، وقصر آخرون. ومن هنا فقد جاء إيقاع المدائح النبوية على مزدوجات تارة ورباعيات ومخمسات وموشحات أخرى.

فمن المزدوجات، وتعني انتهاء الشطرين بحرف واحد⁴ قول إبراهيم الخياري⁵:

نبينا المبعوثُ بالدلالة لمنهج الحقِّ والرسالة
فمهَّد الفروعَ والأصولاً وبينَّ المعقولَ والمنقولاً⁶

هذه المزدوجة حوت في كل بيت نغمة متكررة في الشطرين، وهي نغمة تختلف من بيت لآخر، وهذا ما يجعلها سهلة الحفظ، فتكون بذلك وسيلة للتعليم لما فيها من

¹ طليمات، غازي، في علم اللغة (دمشق: دار طلاس، 1997) ص154.

² الحسنائي، محمد محمود، الفاصلة في القرآن (حلب: دار الأصيل، د. ت)، ص195.

³ حمدان، ابتسام أحمد، الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي (حلب: دار القلم العربي، 1997)، ص277.

⁴ خلوصي، صفاء، فن التقطيع الشعري والقافية (بغداد: منشورات مكتبة المتن، 1977)، ص230.

⁵ إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري (1037-1083هـ) شاعر ومحدث من المدينة المنورة. خلاصة الأثر، ج1، ص27.

⁶ الخياري، إبراهيم، تحفة الأدباء وسلوة الغرباء المعروف برحلة إبراهيم الخياري، تحقيق رجاء محمود السامرائي، ص97.

تنوع موسيقي ينشط الذهن. إلا أن شاعرنا لم يوفق في هذه المزدوجة، بل إن بعض النقاد القدامى لم يعدوا المزدوجات في القصيد لأنها تدل - في رأيهم - على عجز في المقدرة الشعرية، والأمر يتبع مقدرة الشاعر.

ولعل شعراء الرباعيات والمخمسات كانوا أكثر توفيقاً في أنغامهم من أصحاب المزدوجات، فالشاعر صالح بن سلطان¹ جاء برباعية² طربة النغم عذبة الوقع على الأذن تجري على نحو قوله:

يا برقَ شِعْبِ الأبرقَيْنِ	إنْ جَزَتْ وادي الرقْمَتَيْنِ
سَلَّمَ على جدِّ الحسين	وآلِهِ والصالحين
أزكى الأنامِ مَحْتداً	ومن أتاناً بالهدى
ونورُهُ لما بدا	أحجل نورَ النيرَيْنِ ³

فروي المطلع النون أضفى على الأبيات عذوبة وجرساً حلواً، وخفف وطأة روي الأشطر التي جاءت في المقطوعة الثانية، فكأن حرف النون يعيد إلى النفس الطرب والمتعة في نهاية كل مقطوعة، كما اعتمدت المقطوعة الثانية على المدود، والمد أقدر على إحداث تأثيرات نفسية، وتنوع في الإيقاع بين الارتفاع والانخفاض، وهذا التلون يكسب النص نغمة واضحة في النطق والإنشاد.⁴

أما المخمسات⁵ النبوية فقد كثرت في هذا العصر كثرة ملحوظة. وقد نظم

¹ صالح بن سلطان (1157-1222هـ) شاعر حافظ من حلب، إعلام النبلاء، ج7، ص169.

² الرباعيات هي مقطوعات متوالية يتألف كل منها من أربعة أشطر، وتكون أشطر المقطوعة الأول (المطلع) على روي واحد، ثم تخالف المقطوعات الأخرى في رويها فتكون أشطرها الثلاثة على روي والرابع على روي المطلع: فن التقطيع الشعري، ص291.

³ إعلام النبلاء، ج7، ص171-172.

⁴ حمدان، الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، ص155.

⁵ المخمسات كالرباعيات إلا أنها تتألف من خمسة أشطر، وقد يأتي الشطر الرابع والخامس من قصيدة أخرى ويسمى هذا التخميس: فن التقطيع، ص296.

مالك بن المرحل السبتي¹ مخمسات نبوية التزم فيها حروف المعجم بدءاً وانتهاءً، كما التزم الشطر الخامس كله في المدحة النبوية الخمسة، يقول فيها:

ألف: أجل الأنبياء نبيء بضياؤه شمس النهار تضيء
وبه يؤمل محسن ومسيء فضلاً من الله العظيم عظيما
صلوا عليه وسلّموا تسليما

باء: بدا في أفق مكة كوكبا ثم اعتلى فجلا سناه الغيها
حتى أثار الدهر منه وأخصبا إذ كان فيض الخير منه عميما
صلوا عليه وسلّموا تسليما²

فالشاعر ذكر اسم الحرف "الألف"، وقصد به الهمزة في المقطوعة الأولى، ثم ختم الأشطر الثلاثة الأولى بالهمزة. أما الرابع والخامس فقد جاء على روي الميم المفتوحة، كما التزم القسم الخامس في المقطوعات كلها، فأكسب بهذا التكرار النص جرساً موسيقياً عذبا، مما جعل القصيدة قابلة للإنشاد بهذه الدندنة اللطيفة.

وكان كثير من أدباء العصر يخمسون قصائد لغيرهم، ويجعلون أبيات الآخر تأتي في الأشطر الرابعة والخامسة، كما فعل الشاعر أمين الجندي³ حين خمس نبوية عبد الله حجازي التي مطلعها:

أهلاً بنشرٍ في مَهَبٍ زَرُودٍ أحيا فؤادَ العاشقِ المنجود⁴

1 مالك بن المرحل السبتي من شعراء سبته في المغرب، له مخمسات نبوية التزم بها حروف المعجم بدءاً وانتهاءً: نفح الطيب، ج10، ص309.

2 المرجع نفسه ج10، ص309.

3 أمين بن محمد بن خالد الجندي الحمصي (1180-1257هـ) شاعر من أعيان حمص، له قدود وموشحات غنائية وأنغام مستحدثة: الأعلام، ج2، ص16.

4 المحيي، محمد أمين بن فضل الله، نفحة الریحانة ورشحة طلاء الحانة، تحقيق محمد عبد الفتاح محمد الحلو، (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1967-1969)، ج2، ص568.

فجعلها في خمسة نبوية له، ومما جاء فيها:

ما خابَ راجٍ راحٍ يقصدُ بابَه دوماً ويرجو بالنوال جنباه
حرماً تؤم المرسلون رحابَه وتطوف أملاك السماء قبابَه
فتراهم من نزل وصعود

هل غير طه في الشدائد منقذي وجماه لم يرخ حمى المتعود
روحي الفداء لقبره الزاكي الشذي إني وفيه ذلك النور الذي
بضيائه يهدي إلى المعبود¹

وكرر في هذا العصر تخميس بردة البوصيري وهمزته التي مطلعها:
كيف ترقى رؤيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء
وقد خمسها أمين الجندي أيضاً كاملة، واستهل أولى مقطوعاته بقوله:
يا نبياً سمّت بك العلياء وأضاءت بنورك الظلماء
حيث ما لا بتدا علاك انتهاء (كيف ترقى رقيق الأنبياء
يا سماء ما طاولتها سماء)

ومنها قوله:

لك بالوجد يابس الجذع حنا وعليك الإله بالقرب منا
والنبيون إذ تعاليت معنى إنما مثلوا صفاتك لنا
س، كما مثل النجوم الماء²

وكذلك خمست قصيدة البرعي النبوية ومن خمسها الشاعر محمد الأريحاوي.³

ومما جاء فيها:

¹ ديوان الشيخ أمين الجندي، ص 199.
² نفسه ص 143، وينظر مثلها أيضاً في إعلام النبلاء، ج 7، ص 238، وحلية البشر، ج 3، ص 1289، وخلاصة الأثر، ج 4، ص 471.
³ محمد الأريحاوي ولد 1208هـ، شاعر من إدلب وعالم ومفت، حلية البشر، ج 3، ص 1288.

أتاهم منذراً فأبوا وهموا بإخراج له وطغوا فذموا
وللإيمان أصلاً لم يؤموا دعاهم واعظاً فعصوا وصموا
فأعقب وعظهم ضرباً وطعناً
نبي قد سعى للحق سعياً حميداً مخلصاً أمراً ونهياً
أبان الشرع إثباتاً ونهياً وإن الله كلم ذاك وحياً
وكلم ذا مشافهة وأذناً¹

فالشاعر أخذ الشطر الرابع والخامس من نونية البرعي وقد التزم الشطر الخامس فحسب إذ كان على روي المطلع النون. أما الأشطر الأربعة الأخرى فالتزمت في كل مقطوعة حرف روي واحد، وهو يختلف من مقطوعة لأخرى. وهذه التخميسات كلها أضفت على الأبيات موسيقى عذبة طربة، كما حافظت على كثير من القصائد التي عرفت كاملة عن طريق تخميسها كنبوية الحجازي السالفة الذكر.

وهناك مسدسات ومسبعات ومثمنات نبوية ومن الثانية قول مصطفى الكردي²

في تسبيع بردة البوصيري:

داعي الغرام جميل والهوى قسّم والجسم من سقم أجفان به سقم
وإن ركن اضطباري عنه منهدم لكن رقي ينادي: ذا الفتى عدم
يروم شراً في أحشائه ألسم (أيحسب الصب أن الحب مُنكّتم)
(ما بين مُنسجم منه ومُضطرم)³

فالشاعر جاء بالمسبعة على روي الميم، وكان الشطر السادس والسابع مضمناً من

بردة البوصيري.

¹ المرجع نفسه ج3، ص1293.

² مصطفى الكردي (ت1225) شاعر حلي ينظر له في مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، المنتخب من المخطوطات العربية في حلب (بيروت: عالم الكتب، 1987)، ص402.

³ المرجع نفسه، ص402-403، وينظر لمعشرات نبوية في سلك الدرر، ج1، ص58.

ومن المعشرات النبوية — وقد جاءت على عشرة آيات لا عشرة أشطر، وبدأ كل بيت منها وانتهى بحرف واحد — قول أبي السعود المتي في نبوة له بناها على حرف الجيم:

جاء بالحق من أنار الدياجي	فهدانا بنوره الوهاج
جل من بالجمال فيه تجلى	واجتبهه لقربه والتناحي
جرّد العزم فهو خير نبي	من أولي العزم واضح المنهاج
جّد الدين بعدما فرّقته	عصبة بين زائغ ومُداج
جوده عمر الوجود وجدوا	هـ بحار، والخلق كالأمواج
جحدته عيون قوم فاطفا	إذ رمى الله نورها بالعجاج
جمع الأمر بين حق وخلق	وانطوى الكل فيه بالاندراج
جبرائيل الأمين منه يناجي	هـ بطور الفؤاد وهو المناجي
جال في لجة الغيوب وأسرى	ورأى الله ليلة المـعراج
جُدْ بعفو يا خير من بذل الجو	د لعبد ما زال للفضل راج ¹

إن تكرار حرف الجيم في المطالع والأعجاز، وإن بدا فيه بعض التكلف، أعطى جرساً موسيقياً ونغمة محبة إلى حد ما.

وهناك موشحات نبوية لا تكاد تخرج في مضمونها عن أخواتها من القصائد النبوية، أما منهجها فيختلف، إذ يقوم على قفل عدد أشطره بين 2-4 أشطر، ويلتزم فيه روي الشطرين الثاني والرابع، وبيت يتكون من 3 إلى 6 أشطر يلتزم فيها روي الأعجاز فيما بينها لكن الروي يختلف في كل بيت، ويكون القفل مع البيت ما يسمى بالدور، وتختتم الموشحة بالخرجة، وهي في المدائح النبوية فصيحة لا إسفاف فيها،

¹ سلك الدرر، ج 1، ص 62، وقوله: "ما زال للفضل راج" ترك فيه نصب الروي للضرورة الشعرية.

وغالبًا ما تكون صلاةً وسلامًا على الرسول ﷺ.¹ وتقوم موسيقى الموشحة على نظام يعتمد على التغير والتوازن والتكرار، مما يكسب الموشح نغمة طربة تبهج النفس. ومن موشحات العصر العثماني ذات الجرس العذب واحدة لأمين الجندي المعري،² وكان قفل المطلع فيها قد التزم في شطره الأول والثاني حرف الروي الميم والثاني والرابع حرف السين، وذلك على النحو الآتي:

شادنُ تاهَ على بدرِ السما وتحلَّى برداءِ سُندسٍ
وببيضِ اللحظِ والسمَرِ حمى خمرَ ريقٍ في تُغَيِّرِ أَلْعَسِ
ومنها في الثناء على الرسول ﷺ:

عينُ أعيانِ البرايا والملا سيّدُ الرسلِ ومصباحُ الهدى
مَنْ أقام الدينَ حتى أنْ علا وسقى السَّمَّ من السيفِ العدى
وأتى بالحقِّ مُدْعَنًا جلا ظلَمَةَ الشكِّ وأوثاقَ الردى
مَنْ عليه الضَبُّ حقًّا سلَّما وله الظُّيُّ شكًا فِعْلَ المُسيِّ
كم وكم أبرأ عينا من عمى فاجتنبِ أفعالَ أهلِ الهَجَسِ³

هذه الموشحة الأندلسية⁴ في أنموذجها أعطت الأبيات جرساً موسيقياً عذباً، وانسجاماً نشأ من توالي الحروف في نهاية كل شطر من أشطر القفل الذي يتألف من

¹ يرى ابن سناء الملك أن الخرجة يجب أن تكون عامية وغزلية، وفيها إسفاف وظرف لتدفع السأم. وأرى أن هذه الشروط لا تناسب المدحة النبوية، ولذلك لم يتبعها شعراء المديح النبوي، ورأوا أن أنسب ختام لها الصلاة عليه ﷺ. وينظر لشاهد على ختم النبوة بالصلاة على الرسول ﷺ: علماء دمشق ق 12 هـ، ج 1، ص 500.

² أمين بن محمد الجندي المعري شاعر ومفتي الشام: حلية البشر، ج 1، ص 353.

³ المرجع نفسه ج 1، ص 362.

⁴ نسبة إلى موشح ابن سهل الأندلسي الذي مطلعته:

هل درى ظلي الحمى أن قد حمى قلب صب حلّه من مكس

وقد عارضه الوزير أبي عبد الله الخطيب شاعر الأندلس في موشح مطلعته:

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس

خلاصة الأثر، ج 1، ص 144، وسمي هذا الأنموذج بالموشح الأندلسي، وقد عارضه شعراء العصر العثماني كثيراً كما في الشاهد المذكور، ينظر لذلك أيضاً: إعلام النبلاء، ج 6، ص 465.

أربعة قسائم، وينتهي فيه الشطر الأول والثالث بحرف الميم المنغم، والثاني والرابع بحرف السين ذي الرنة الطربة، أما البيت فيتألف من ستة أشطر كان الأول والثالث والخامس على روي اللام الموصولة، والقسيم الثاني والرابع والسادس على حرف الدال الموصولة أيضاً.

وهذا موشح آخر للشاعر عبد الرحيم المخللاتي¹ يوحى بروي الحاء الذي انتهى به القفل إلى ما يعانيه المدّاح النبوي من تعب ووصب، لكن هذا التعب والوصب سرعان ما يزول مع مدح الرسول ﷺ، السيد المعتلي بهجة النفس والفؤاد، الذي تعطر فضائله صحائف الدهر، يقول:

شاطر الدهر أسهما	حيث أيامه اقتراح
وامتطى الليل أدهما	لاكتساب العلى المتاح
سيد تخضعُ الشموسُ	لعلّا شأوه الرفيعُ
إذ غدا بهجة النفوسُ	روضُ أفضاله المريعُ
بعد ماعطر الطروس	ذكره العاطر البديع ²

فالشاعر جاء بهذا الموشح من خمسة أدوار التزم في روي الأقفال حرفاً في الصدر وآخر في العجز، وكذلك فعل في الأبيات، وكان القفل مكوناً من أربعة أشطر، والبيت من ستة، ويبدو أن هذا النموذج هو المفضل في ذلك العصر، وفيه نغم متساوق يجذب الأنظار، ويهيج القلوب، ويستجيش المشاعر.

وهكذا تعددت النماذج الموسيقية في المدائح النبوية، وجاء بعضها على بحر طربة، أو على مجزوعات تسر النفس وتهيج القلب، فضلاً عن ورود كثير منها على

¹ عبد الرحيم المخللاتي (1101-1140هـ) شاعر وشاح وعالم بالفرائض والحساب: سلك الدرر، ج3، ص7.

² المرجع نفسه ج3، ص7.

شكل رباعيات أو مخمسات أو موشحات أو ما شابه ذلك، وكأن صاحبها يترجم بفضائل المصطفى ﷺ وتهتز مشاعره وتسعد روحه بذكره.

التشكيل اللغوي في القصيدة النبوية

ورث العصر العثماني قصائد نبوية ملهمة، وأخرى بدا فيها التكلف واضحا حتى عدت من النظم، ذلك لأن اهتمام أصحابها انصب على القضايا البلاغية، في عصر مال شعراؤه إلى الصنعة، وقد قلدهم شعراء هذا العصر فجاؤوا بقصائد مطبوعة أطلقوا فيها أنفسهم على سحيتها للتعبير عن مواجدهم وأشواقهم تجاه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، من غير ما تكلف أو تعمل، ولكن آخرين أعجبوا بما ورثوه من نظم البوصيري والحلي اللذين أكثرا من التصنع والتكلف، وأطلق على قصائدهم اسم "البديعيات".

تمتاز البديعيات التقليدية وما سار على نهجها بطولها إذ يقارب معظمها مئة وخمسين بيتاً على البحر البسيط، وروي الميم المكسورة، وكان معظمها ينهج نهج بردة البوصيري كما رأينا وقد ذكر بعضهم في أبياته اسم اللون البديعي على غرار ما فعل عمر العزازي في مثل قوله:

براعتي وبديع المدح من كلمي	مُستفتحاً بمدح الزاكي الشيم
ما شحَّ بل سحَّ وأبلهم وصحفهم	ما حرّفوا من أريج السّلم والسّلم
وضل من ظل لفظ العدل يؤلمه	فالقلب من لدع عدلٍ فاظ بالألم ¹

¹ إعلام النبلاء، ج7، ص28، وكلمة فاظ تعني فاض على لغة المشاركة الذين يقبلون الضاد ظاء في بعض مناطق البلاد وفي شرقي الجزيرة العربية إلى الآن. وينظر لما ذكر فيه اسم اللون البديعي، أبو زيد علي، البديعيات في الأدب العربي نشأتها وتطورها، أثرها (دمشق: دار الكتب، 1983)، بديعة للشاعر أبي الوفاء العرضي وتسمى: الطراز البديع في امتداح الشفيق، ص336.

ففي البيت الأول نراه يذكر براعة الاستفتاح، وفي الثاني جناس التصحيف بين شح وسح وفي الثالث القلب بين لذع وعدل. وهناك مَنْ تكلف الإتيان بالبديع وإن لم يذكر اسم اللون البديعي في أبياته على نحو قول عبد الغني النابلسي¹:

والبدرُ قد شُقَّ من بحرِ السماء له عصائه أُصْبِعَ لو كان عن أمم
محا الضلال بإثبات الهدى وحى حِمى شريعته بالسيف والقلم²

ففي البيت الأول تلميح³ إلى قصة موسى عليه السلام، وفي الثاني طباق بين محا وإثبات، وجناس ناقص بين حَمَى وحِمى، ولكنه لم يسم هذه الأنواع، بل اكتفى بإدخالها في أبياته ليزين بها أسلوبه على شاكلة أدباء العصر في موقفهم من البديع. وليس في البديعيات جمال أسلوب لأنها تؤدَّى غالبًا في قالب مصنوع لا مطبوع، ولا تصدر عن تجربة شعورية، لأن غاية ناظميها كانت إظهار المقدرة البلاغية. ثم جاء شراح البديعيات فرسخوا هذه القوالب وجعلوا المدائح النبوية لتعليم القضايا البلاغية بأسلوب جاف لا طراوة فيه ولا حلاوة. وكان من هؤلاء الشراح عبد الغني النابلسي، وأبو الوفاء العرضي، وقاسم البكرجي، وحسين الداديني، وغيرهم من شعراء العصر العثماني. ومن الأساليب التي استخدمها أدباء هذا العصر في تشكيلهم اللغوي المعارضة الشعرية، ومنها يبين إعجاب الشعراء بقصائد السالفين والمعاصرين ومحاولة تقليدهم لهم، وعلى الرغم من أن بردة كعب بن زهير النبوية التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول⁴

¹ عبد الغني النابلسي (1050-1143هـ)، شاعر متصوف من دمشق، له مؤلفات كثيرة. سلك الدرر، ج3، ص30.

² النابلسي، عبد الغني، ديوان نغحات الأزهار على نسمات الأسحار في مدح النبي المختار، شرح البديعية المزرية بالقعود الجوهريّة (دمشق: دار الكتب، 1984)، ص184، وينظر لمثلها في البديعيات، ص141.

³ التلميح هو الإشارة إلى قصة أو نكتة مشهورة أو إلى مثل سائر، المرجع السابق، ص184.

⁴ ديوان كعب بن زهير (بيروت: دار صادر، د. ت)، ص48.

كانت تنحو منحى جاهلياً وأن صاحبها لم يمدح الرسول ﷺ إلا لينجو من الموت، وأن مديحه جاء في بضعة أبيات فحسب، ومثل هذا لا ينتظر منه صدق الثناء،¹ إلا أنها لقيت إعجاباً كثيراً، وحُظيت بمعارضات عدة، ومن عارضها موسى بن عمر السباعي في قصيدة نبوية مطلعها:

صَدَّتْ سَعَادُ وَمَا لِلْحَالِ تَحْوِيلُ وليس لي في سواها قطُّ مأمولُ

وفيهما يقول:

طه الحبيبُ الذي نارَ الوجودُ به وجاءه من لدى مولاه تزييلُ

نبيُّ صدقٍ بدين الحق قام وفي كفيه سيفُ لقمعِ الشرك مسلول²

ومنهم من عارض قصائد مشهورة بعد أن جعل موضوعها في المديح النبوي كما فعل خليل البكري³ حين عارض حائية فتح الله بن النحاس في مديح محمد بن فروخ أمير الركب الشامي إلى الحج، ومطلع قصيدة ابن النحاس:

بات ساجي الطرفِ والشوقُ يلحُ والدجى إن يمضِ جنحُ يأتِ جنح⁴
ومطلع البكري:

أي دمعٍ لا يسحُ وشجٍ في الحبِّ يصحو
وفيهما يقول في المدح النبوي:

ودّع الحجر فقلي آن أن يثنيه مدحُ
لرسول جاء بالأنـ ووار ليلَ الشكِّ يحو
سيدُ الكونين من ذكـ سراه لي طيبٌ ونفح⁵

¹ المدائح النبوية، ص24.

² حلية البشر، ج3، ص1567، وينظر مثلها في إعلام النبلاء، ج6، ص259.

³ خليل البكري الصديقي (1098-1173هـ) شاعر ومغني الشام: علماء دمشق ق12 هـ، ج3، ص143.

⁴ ديوان فتح الله بن النحاس، ص111.

⁵ علماء دمشق ق12 هـ، ج3، ص143، وينظر لمعارضة الشاعر أحمد بن مشرف لها أيضاً في ديوانه، ص19.

ومنهم من عارض همزية البوصيري وشطر بعض أبياتها كما فعل صلاح الدين الكوراني¹ فقال:

كيف لا تنجلي بك الغبراء واستضاءت بنورك الخضرأ
وفيهما يقول:

وسبقت الكرام شأواً فقل لي (كيف ترقى رقيق الأنبياء)
أيرومون من علاك لحاقاً (يا سماء ما طاولتها سماء)²

ومنهم من شطر قصائد معروفة وجعلها ضمن قصيدته كوسيلة من وسائل التعبير اللغوي كما فعل عبد الرزاق الجندي³ حين شطر بردة كعب بن زهير ومما جاء فيها:

(أمت سعاد بأرض لا يبلغها) إلا أقبُّ رباغ فيه تسهيل
وليس يدرك ركباً فيه قد طعنت (إلا العتاقُ النجيات المراسيل)
(ولا يبلغها إلا عذافرة) سريعة الجري في البداء شميل
عوجُ الرقاب كرمات مؤصلة (لها على الأئني إرفالٌ وتبغيل)⁴

والتشطير من أساليب التعبير التي يلجأ إليها شعراء العصر لتكون في تشكيلهم اللغوي ومن شطر أيضاً الشاعر أحمد المنيبي⁵ إذ جاء بأبيات للشاعر أبي المواهب البكري⁶ النبوية فقال:

¹ صلاح الدين بن محيي الدين الكوراني (ت 1049هـ) شاعر حلبي من المكثرين ينظر له في إعلام النبلاء، ج 6، ص 239.

² إعلام النبلاء، ج 6، ص 244.

³ عبد الرزاق بن محمد الجندي (ولد 1150) شاعر من حلب ينظر له في سلك الدرر، ج 3، ص 11.

⁴ سلك الدرر، ج 3، ص 15 وينظر لمثلها في إعلام النبلاء، ج 6، ص 516.

⁵ أحمد بن علي المنيبي (1089-1172هـ) نسبة إلى منين قرية شمالي دمشق، علماء دمشق، ق 12هـ، ج 3، ص 61.

⁶ الشاعر أبو المواهب البكري (ت 1048 هـ) من أساتذة الأزهر في مصر وقد مدحه كثير من الشعراء، خلاصة الأثر، ج 1، ص 201.

ما أرسل الرحمنُ أو يرسلُ من كل خيرٍ للورى يحصلُ
إلا وطه المصطفى عبدهُ سرُّ الوجود السيد الأكمل
خاتمُ رسل الله مبعوثُهُ نبِيُّه مختارهُ المرسل
فلذُ به من كل ما تختشي تأمن أذى خطب غداً يثقل¹

ومن أساليب التشكيل اللغوي للمدائح النبوية أيضاً المساجلات الشعرية بين اثنين أو أكثر بحيث يبدأ واحد فيتم آخر، فثالث وهكذا فالشاعر عبد الرزاق الجندي كان في مجلس مع الشيخ محمد سعيد السويدي البغدادي والشيخ عثمان البصري الحمصي فقال الجندي مساجلاً بمدحه للرسول ﷺ:

هو المصطفى بحرُ الصفا وبه صفا فمشرُّه الأصفى مواردُ جنده
فقال البصري:

أجلُ ذوي الجاهِ العريض سيادةً فكل مقامٍ في العلا دون مجده
فقال السويدي:

محا نسخَ التوراة بالسيف والقنا وسلَّ حسامَ الحقِّ من بعد غمده
فقال الجندي متابعاً:

تقيُّ نقيٍّ كامل ومكمل أقام بنا الإسلام من بعد هدّه
فقال البصري:

أجل النبيين الذي بعضُ فضله تترّه عن حصرِ المديح وحده
فقال السويدي:

ولو صارتِ السبعُ البحار مدادَه وميدانها طرساً لأعيت بعده²

¹ المرجع نفسه، ج3، ص67.

² سلك الدرر، ج3، ص19-20.

ومن الأساليب التعبيرية أيضاً اقتباس كلمات الحديث الشريف، وكتابتها ضمن النبوية على طريقة مبتكرة من ذلك قول عبد الله اليوسفي¹ وقد ذكر في أبياته قول الرسول ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»، وكان الشطر الأول يحوي "قال رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام"، ويحوي الشطر الثاني نص الحديث الشريف المذكور، وذلك على النحو الآتي:

أمرأ ونهياً (اتقوا) إعلانا	داعي الهنا (قال) لنا تبياناً
فيمن حُي (فراصةً) عيانا	حيث (رسولُ) الحق قد بشرنا
بقلبه (المؤمن) من حيث كانا	حظي بنورِ (الله) في أحكامه
ناطقةً (فإنه) أحياناً	فتنجلي (عليه) أسرارُ غدت
بالضعفاء (ينظرُ) استحسانا	محمد (أفضل) عادل يرى
ن مَنْ (بنورِ) الحق قد هدانا	فإنهم غب (الصلاة) يسألوا
له من (الله) لما أولانا ²	يبقى دواماً (والسلام) لم يزل

ومن هذه الأساليب أيضاً تضمين أبيات لشعراء آخرين، فالشاعر السيد شعيب الكيالي³ ضمن بيتي حسان بن ثابت رضي الله عنه وأشار إليهما في مدحته النبوية التي قال فيها:

أيَا سَكَانَ طَيِّبَةٍ إِنْ فَيْكُمْ	يَطِيبُ لِي التَّمَدُّحُ وَالرِّثَاءُ
عَلَى قَلْبِي تَجَلَّى مِنْ حِمَاكُم	حَبِيبٌ قَدْ تَغَشَّاهُ الْبُهَاءُ
جَمِيلٌ لَا يَشَاهُهُ جَمَالُ	مَنِيرٌ لَا يَقَارِبُهُ سَنَاءُ
(فَأَحْسَنَ مِنْكَ لَمْ تَرِ قَطْ عَيْنٌ	وَأَجْمَلَ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ)

¹ عبد الله اليوسفي شاعر من دمشق: علماء دمشق ق12هـ، ج3، ص455.

² المرجع نفسه ج3، ص455.

³ السيد شعيب بن إسماعيل الكيالي (1116-1172هـ) شاعر متصوف من حلب: إعلام النبلاء، ج6، ص511.

(ولدت مبراً من كل عيب كأنك قد ولدت كما تشاء)¹

وهكذا رأينا تعدد أساليب التعبير عند مداح الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وكأن نبع الشعراء السالفين والمعاصرين هو المعين الذي ارتووا منه فقلدوه شكلاً ومضموناً وموسيقى، ثم أضافوا إليه من ابتكاراتهم ما جعل أدهم يستحق أن يدرس لما فيه من تجديد وإبداع.

خاتمة

بعد هذه الجولة مع المدائح النبوية في العصر العثماني أرى أنها سارت على خطأ أخواتها في العصر المملوكي، وقد دعا إلى كثرتها أسباب عديدة لعل أهمها حب الرسول ﷺ والمناسبات الدينية والكوارث والحروب السياسية. وقد تميزت المدائح النبوية في هذا العصر بمظاهر متعددة وسمات مختلفة.

فمن حيث المضمون احتوت المدحة النبوية ذكراً لخلال الرسول ﷺ المادية والمعنوية، وحديثاً عن معجزاته، وتعبيراً عن حبه ﷺ وجهاد صحابته معه لتوطيد دعائم الإسلام، وكان بعضها يسترسل في الحديث عن الصحابة الكرام. وقد حوت بعض المطولات حديثاً عن أمهات المؤمنين، وعن الخلفاء الراشدين والخلفاء من بني أمية والعباس، كما وجد تجديد في مدائح للأنبياء الآخرين في قصائد مستقلة كتركيا وإبراهيم ويونس عليهم السلام.

وكان في بعض المدائح تطرف ومغالة مقبوحة شرعاً، وقد نجما عن الفكر الصوفي الذي يعلي من شأن الرسول ﷺ فيجعله يتصرف في العباد كما يشاء في الدنيا، فضلاً عن الشفاعة في الآخرة. كما يعتقد أصحابه أن الرسول ﷺ مبدأ الكون وختم الرسل إذ أوجده المولى تعالى قبل أن يخلق آدم، وأن الجنة تزخرت من أجله

¹ المرجع نفسه، ج6، ص513.

ولولاه ما كانت المعجزات، وما خمدت نار الخليل ولا كلم الله موسى، بل إن الدنيا كلها لم تخرج من العدم إلا من أجله وأنه رأى ربه يوم الإسراء والمعراج بدون حجاب...

أما سمات المدائح النبوية الفنية فقد تبدت في منهج المدحة وهي في معظمها بنية تقليدية إذا استهلت بالغزل الرمزي غالباً أو بمناجاة المولى تعالى أو بالحديث عن التوبة أو بوصف الطبيعة، وانتقل بعضهم إلى الرحلة إلى ديار المصطفى ﷺ، ثم كان مضمون المدحة... فالخاتمة التي كانت صلاةً على الرسول ﷺ وعلى آله غالباً.

وقد طالت بعض المدائح حتى قاربت ثلاثمائة بيت، وقصر بعضها حتى صار مقطعات أو شبيهاً بها، ويجمع بين أوصالها وحدة عضوية تقوم على العامل النفسي الذي يضم موضوعات المدحة النبوية في بناء متكامل، ولا يؤثر ذلك في وحدة البيت أو استقلاله.

أما موسيقى المدحة النبوية فكانت تقليدية غالباً، إلا أن كثيراً من الشعراء نظموا مدائحهم النبوية على نغمات الموسيقى المستحدثة في العصور السابقة كالمرزوجات والرباعيات والخمسات والمسدسات حتى العشرات النبوية، فضلاً عن الموشحات النبوية، وقد كثر تخميس بردة البوصيري وهمزته.

إن المدحة النبوية ذات أسلوب مطبوع ملهم، إلا أن البديعيات كثر في تشكيلها اللغوي الصنعة والتعمّل، حتى إنها حوت في كل بيت لوناً بديعاً، وغالى بعضهم في ذلك حتى سمى اللون البديعي الذي استخدمه. كما استخدم شعراء هذا العصر أساليب تعبيرية أخرى كمعارضة القصائد النبوية وغير النبوية للدلالة على تأثر الشعراء بالسابقين وبالمعاصرين لهم، ولجأ بعضهم إلى التشطير وكثر تشطير بردة كعب بن زهير ومعارضتها. وهناك من لجأ إلى المساجلات الشعرية أو إلى اقتباس ألفاظ الحديث الشريف وإدخالها في أبياته النبوية في تشكيل جديد.

وعلى أي حال، تعد مدائح العصر العثماني من أعظم تراثنا الشعري، وقد أغنت أدبنا العربي عامة والعثماني خاصة، وتأثر بها بعض الشعراء المعاصرين فنظموا مطولات نبوية على نحو ملحمة الإسلام للشاعر المصري أحمد محرم، بل إن الأعاجم الذين عرفوا اللغة العربية حاولوا النظم على منوالها كالسلطان العثماني عبد الحميد الثاني إذ نظم نبوية سماها قصيدة الحجرة النبوية الشريفة¹ مقلداً بذلك مداح الرسول ﷺ.

¹ العصر العثماني، ص38.